في رحاب النبي الأكرمﷺ

في رحاب

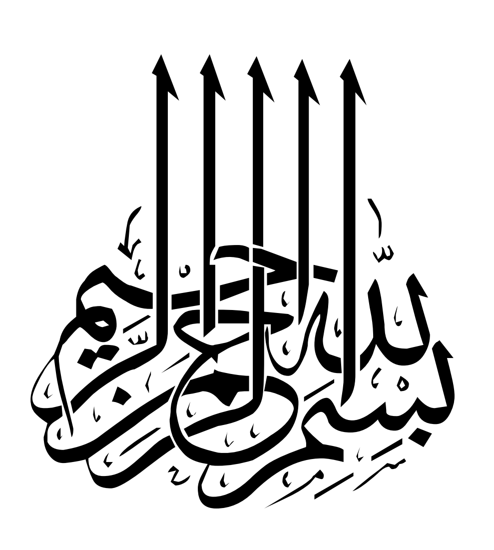
النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم

ترجمة وإعداد

دار الولاية للثقافة والإعلام

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ.٢٠٠٨م


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إليك يا حبيب الله

إليك يا رسول الله

إليك يا من بعث رحمة للعالمين

إليك يا صاحب الخُلق العظيم

تقبل منا هذا الجهد المتواضع

المقدمة

في خضم الهجمة الشرسة على الساحة المقدسة، لنبي الرحمة محمد الأمين صلوات الله عليه وعلى آله؛ والتي تصب في سلة الحرب الصليبية على الإسلام، حريٌّ بكل مسلم غيور أن يشمر عن ساعديه ليقول كلمة الحق من على جميع المنابر، بخطاب أو بتقديم مقالة أو نشر حديث أو رواية، دفاعاً عمن بعث رحمة للعالمين وترسيخاً للعهد الذي نشأنا عليه منذ ولادتنا وتلقينا الأذان في اليمنى والإقامة في اليسرى (أشهد أن محمد رسول الله).

من هنا تقوم دار الولاية للثقافة والإعلام بتقديم هذا الجهد المتواضع من كلام الإمام الخامنئي دام ظله الذي يتناول فيه حفظه الله حياة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في توجيهاته الكريمة من خلال خطبتي الجمعة.

وقد تم إعداد هذا الكراس على شكل فصلين:

الأول: دراسة عن حياة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم الشخصية.

والثاني: دراسة في معالم النظام الإسلامي.

والحمد لله رب العالمين.

دار الولاية للثقافة والإعلام

الفصل الأول

معالم شخصية الرسول الأكرم ﷺ



الحمد لله رب العالمين، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونؤمن به ونتوكل عليه، ونصلي ونسلّم على حبيبه ونجيبه وخيرته في خلقه، حافظ سرّه ومبلّغ رسالاته، بشير رحمته ونذير نقمته، سيّدنا ونبيّنا وحبيب قلوبنا أبي القاسم المصطفى محمد وعلى آله الأطيبين الأطهرين المنتجبين وصحبه المخلصين المجاهدين، وصلّ على أئمة المسلمين وحماة المستضعفين، وصلّ على بقية الله في الأرضيين.

حياة النبي الأكرم ﷺ

إنّ الوجه المنير لدرة تاج الخليقة وجوهر وحدانية عالم الوجود لم يتضح للكثيرين كما ينبغي سوى ما يخص سيرته وحياته أو خُلقه وسلوكه وسياسته، فأردت أن أعرض في خطبةٍ جوانب من شخصيته العظيمة بقدر ما يتيحه الوقت، ولاسيّما ونحن في شهر صفر، ولكنني خشيت ضياع الفرصة وعدم التمكّن من التعبير عن الإخلاص اللازم نظراً لما تنطوي عليه هذه الشخصية السامية من أبعاد واسعة، فقررت

أن أتحدث اليوم وفي هذه الخطبة حول حياة وملامح هذه الشخصية المقدسة.

إن نبي الإسلام المكرّم، وفضلاً عن مناقبه المعنوية وخصاله النورانية واتّصاله بعالم الغيب وما يتميز به من درجات ومراتب يعجز أمثالي عن إدراكها، فإنه كبشر وكإنسان يعتبر شخصية ممتازة من الطراز الأول لا ندّ لها ولا نظير.

لقد سمعتم الكثير حول أمير المؤمنين، وهذا يكفي للقول بأن أبرز شيء في شخصيته أنه كان تلميذاً وتابعاً للرسول ﷺ.

إن نبينا الأكرم ﷺ يتصدّر قائمة الأنبياء والأولياء بشخصيته العظيمة وحلمه اللامتناهي وخُلقه الفريد، ممّا يوجب علينا نحن المسلمين الاقتداء به امتثالاً لقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴿٢١﴾﴾[1] ليس فيما نؤديه من صلوات معدودة فحسب، بل في سلوكنا أيضاً وأقوالنا وحسن عشرتنا ومعاملتنا، وهو ما يستدعي منّا حقّ المعرفة له.

---

(١) من سورة الأحزاب.

مرحلة الصبا

لقد ربّى المولى سبحانه وتعالى نبيّه الأكـرم ﷺ وأدّبـه روحيّـاً وأخلاقيّاً بما يجعله قادراً على حمل تلك الأمانة الكبرى. ومـا علينـا سوى إلقاء نظرة عامة على حياة النبي الأكرم ﷺ في طفولتـه؛ لقـد رحل والده عن الدنيا قبل ميلاده طبقـاً لإحـدى الروايـات، أو بعـد ميلاده ببضعة أشهر طبقاً لرواية أخرى، فلم يـره. وكـان مـن تقاليـد العوائل النبيلة والأصيلة في الحجاز آنـذاك أن تتخيّـر لأبنائهـا مـن السيدات العفيفات والأصيلات والشريفات من ترضعه وتقوم بتربيتـه في أوساط القبائل العربية في البادية. فكان هـذا الوليـد العزيـز مـن نصيب سيدة أصيلة وشريفة مـن قبيلـة بنـي سـعد تـسمى «حليمـة السعدية»، فأخذته حيث تعيش قبيلتها، وظلت نحو ستة أعوام ترضعه وتربّيه، حتى نشأ النبي ﷺ وشبّ عن الطوق فـي الباديـة. وكانـت حليمة تأخذه أحياناً إلى أمّه ــ السيدة آمنة ــ لتراه، ثم مـا تلبـث أن تعود به إلى حيث كانت تعيش. وبعد ستة أعـوام، ولمـا صـار هـذا الصبي في حالة ممتازة من النمو الجسمي والروحـي، وبـات قـوي البنية، جميلاً، ونشيطاً، ونبيهاً، وبرزت فيه صـفات الـصلابة والـصبر وحسن الخلق والسلوك وسعة الأفق، والتي هي من لوازم الحياة فـي

تلك الظروف، فإن السيدة حليمة أعادته إلى أمّه وقبيلته. وعندئذ أخذته أمّه إلى يثرب لزيارة قبر أبيه عبدالله الذي مات ودفن هناك. حتى إن النبي ﷺ لمّا جاء إلى المدينة المنورة بعد ذلك قال لدى مروره بذلك المكان: هاهنا قبر والدي، ومازلت أتذكر أنني كنت قد قدمت مع أمي إلى هنا، غير أن أمّه توفيت أيضاً في طريق عودتهما من يثرب في مكان يدعى «الأبواء»[1] فغدا هذا الصبي يتيم الأب والأم. وبهذا أخذت روح الصبي في النضج والنمو يوماً بعد آخر وهو الذي سيصبح عليه أن يربّي البشرية على صفاته وخصاله الأخلاقية ويأخذ بيدها نحو التقدم في غد الأيام. وفي تلك الأثناء عادت به أم أيمن إلى مكة وسلّمته إلى جده عبد المطلب الذي ظل يسبغ عليه من عطفه ورعايته حتى إنه لَيقول في شعر له ما معناه أنه له بمنزلة الأم من الولد.

مكانة الرسول ﷺ عند شيخ البطحاء

لقد كان هذا الشيخ العجوز البالغ من العمر نحو مائة عام ـ والذي كان رئيساً لقريش مع ما له من شرف وعزة ـ يحنو على

---

(١) الأَبْواء: وهو بفتح الهمزة وسكون الباء والمدِّ، جَبَل بين مكة والمدينة، وعنده بلد ينسَب إِليه. (لسان العرب)

هذا الصبي بكل ما لديه من عطف ومحبة فشبّ سويّاً دون أن يشعر بمرارة اليتم وافتقاد حب الوالدين.

والمدهش في الأمر أن هذا الصبي شب يتيماً وتحمل متاعب فقدان الوالدين حتى تتكامل شخصيته وتنمو كفاءاته دون الشعور بأدنى قدر من النقص الذي يمكن أن يصاب به بعض الأبناء في مثل هذه الأحوال.

لقد كان عبد المطلب شديد الحب له والتقدير ممّا أثار دهشة الجميع. وتروي كتب التاريخ والحديث أنّ عبد المطلب كان يُبسط له فراش وتوضع له وسادة بجوار الكعبة فيجتمع حوله أبناء وشباب بني هاشم في تبجيل واحترام. وعندما كان عبد المطلب يغادر المكان أو يدخل إلى الكعبة فإن ذلك الصبي كان يجلس على الفراش متّكئاً على الوسادة. وما إن يعود عبد المطلب حتى يطلب شباب بني هاشم من الصبي فسح المجال للأب الشيخ، ولكن عبد المطلب كان يقول لهم: دعوه، فإن هذا مكانه الذي ينبغي له الجلوس فيه، فكان يجلس بجواره دون أن ينحّيه عن مجلسه وهو يوليه المزيد من العزة والشرف والتبجيل. ولكن عبد المطلب توفي هو الآخر بينما كان الصبي مازال في الثامنة من عمره. وجاء في الروايات أن عبد

المطلب أخذ العهد من ابنه أبي طالب ـ وهو من أعز أبنائه وأرفعهم درجة لديه ـ وأوصاه خيراً بالصبي قبيل وفاته، طالباً منه أن يعامله كما كان يعامله ويحميه كما كان يحميه، فقبل أبو طالب ذلك.

في كفالة عمه أبو طالب

عاد به عمه إلى منزله وهو يحنو عليه كفلذة كبده ويرعاه بكل وجوده. وظل أبو طالب وزوجته – فاطمة بنت أسد أم أمير المؤمنين ـ يوليان هذه الشخصية الرفيعة الكثير من الحماية والعون كما والديه طوال نحو أربعين عاماً. وفي مثل هذه الظروف أمضى النبي الأكرم ﷺ فترة صباه وشبابه.

إن كل الخصال الأخلاقية المتعالية والشخصية الإنسانية الكريمة والصبر والتحمل الشديد والاندكاك بالآلام والشدائد التي يمكن أن تلمّ بالإنسان في طفولته مهدت لتشكيل الشخصية السوية العظيمة والعميقة في هذا الطفل؛ لقد اختار النبي ﷺ أن يرعى غنم أبي طالب في عهد صباه، فكان هذا من العناصر التي كوّنت شخصيته. كما اختار هو بنفسه في تلك السن أن يرافق عمّه أبا طالب في تجارته خارج مكة، وقد تعددت أسفاره في التجارة حتى بلغ سن الشباب والزواج بالسيدة خديجة والوصول إلى سنّ الأربعين عندما نزل عليه الوحي.

أخلاق النبي الأكرم ﷺ

لقد اجتمعت فيه كافة صفات الإنسان الكامل، ولسوف أتحدث عن جانب من مميزاته الأخلاقية باختصار إلاّ أن المرء يحتاج إلى ساعات وساعات ليدخل إلى العالم الأخلاقي الذي تفرد به الرسول ﷺ. ولهذا فإنني سوف أقتصر الدقائق التالية على الحديث في هذا الموضوع بغية التعبير عن إخلاصي، وحتى أكون قد عرضت على الخطباء والكتّاب بشكل عملي ضرورة بذل المزيد من الجهود لمحاولة الإحاطة بأبعاد شخصية النبي ﷺ والتي تمثل بحراً عميقاً. إن العديد من الكتب والمؤلفات تزخر بالقدر الوافر من الحديث حول أخلاق النبي الأكرم ﷺ؛ والذي سأورده هنا اقتباس من مقالة لأحد العلماء المعاصرين ــ وهو المرحوم آية الله الحاج السيد أبو الفضل الموسوي الزنجاني ــ بصورة مختصرة ومفيدة.

دعونا نقسّم أخلاق النبي باختصار إلى «أخلاق شخصية» و«أخلاق حكومية»، أي أخلاقه كإنسان وأخلاقه ومميزاته وسلوكه كحاكم. وهذا بالطبع غيض من فيض، لأن شخصيته تشتمل على الكثير من المميزات البارزة والجميلة والتي ليس بوسعي الآن إلاّ الاقتصار على بعضها.

الأخلاق الشخصية

لقد كان النبي ﷺ رجلاً أميناً وصادقاً وصبوراً وحليماً، كما كان شهماً وحامياً للمظلومين على الدوام؛ فمن حيث الصدق كان سلوكه مع الناس قائماً على الصدق والإخلاص والوفـاء. كمـا كـان طيّـب القول، وكان يتجنب الإساءة والتجريح. وكان عفيفـاً ومعروفـاً لـدى الجميع بالعفّة والحياء والنجابة في ذلك الجوّ الأخلاقي الفاسد الـذي كان يخيم على الحجاز قبل الإسلام، فلم يقترب الخبائث في مرحلـة شبابه. ثم إنه كان من المتميزين بنظافة الظاهر، حيـث كـان نظيـف الملبس والرأس والوجه، وامتاز بحسن السلوك. كما كان النبي ﷺ شجاعاً لا تفتّ من عضده كثرة العـدو، وكـان صـريحاً لا يقـول إلاّ الصدق، وكان زاهداً وحكيماً في حياته، كما كـان رؤوفـاً متـسامحاً كريماً يتجنب الثأر والانتقام، وكان من صفاته الرحمة والمداراة، كما كان ذا أدب جمّ لا يمدّ رجله أبداً في محـضر الآخـرين ولا يـسخر منهم. كما كان الحياء صفته، فكان يستحي من ملامة الناس ويطـأطئ رأسه خجلاً وحياءً، ومواقفه في ذلك تشرق بهـا صـفحات التـاريخ. وكان رحيماً وغايةً في التسامح والعبادة. وكانت كل هـذه الخـصال متجسّدة في شخصية الرسول الأكرم ﷺ في شتى مراحل حياته منذ

صباه وحتى وفاته في الثالثة والستين من عمره. وسأبسط الحديث في بعض هذه الخصال.

لقد كان شديد الأمانة حتى لقّبه الناس في الجاهلية بلقب «الأمين» فكانوا يودعون لديه أماناتهم المهمة وهم على ثقة بردّها إليهم دون إصابتها بسوء. لدرجة أنهم كانوا يحفظون أماناتهم عنده حتى بعد بداية الدعوة الإسلامية وتأجج نار العداء والبغضاء مع قريش، وهم أعداؤه! ولهذا فإنكم سمعتم بأن الرسول ﷺ ترك أمير المؤمنين في مكة عند هجرته إلى المدينة لكي يؤدّي للناس أماناتهم. ومن المعروف أن بعض الكفار والذين ناصبوه العداء كانوا قد استأمنوه على أموالهم حينذاك مع أنهم لم يُسلموا..!

لقد كان النبي ﷺ شديد التحمل لدرجة أن الآخرين كانوا يغضبون عند سماع ذلك، وهو الذي لا تنال منه الشدائد ولا تستفزّ غضبه. وكان الأعداء يؤذونه في مكة لدرجة أن أبا طالب استشاط غضباً منهم وجرّد سيفه ذات مرة وتوجّه إليهم مع أحد مواليه وفعل بهم ما فعلوه مع رسول الله ﷺ وتهدّد كلّ من يعترض سبيله بضرب عنقه، بينما كان النبي ﷺ قد تحمل كل ذلك بحلم وأناة.

وذات يوم آخر وجّه إليه أبو جهل إهانة شديدة إثر نقاش حادّ بينهما، فقابلها الرسول ﷺ بالحلم والسكوت. وعندما أخبر أحدهم

حمزة قائلاً بأن أبا جهل أساء إلى ابن أخيك فإنه تميّز غيظاً وقصد أبا جهل فضربه بالقوس على رأسه حتى شجّ رأسه، ثم أسلم حمزة بعد ذلك جرّاء هذا الحادث.

وأمّا بعد الإسلام فقد كان بعض المسلمين يوجّه إلى الرسول ﷺ أحياناً كلمات تؤذيه غفلةً أو جهلاً فيما يخص بعض الأمور، لدرجة أن إحدى أزواجه ـ وهي زينب بنت جحش التي كانت من أمّهات المؤمنين ـ خاطبته بالقول: إنك نبي ولكنك لا تعدل! فابتسم النبي ﷺ دون أن يعقّب.. فقد كانت تنتظر منه أمراً في الحياة الزوجية دون أن يجيبها إليه، وهو ما يمكن أن أشير إليه فيما بعد. كما كان البعض يأتون أحياناً إلى المسجد فيمدّون أرجلهم قائلين للرسول ﷺ: قلّم لنا أظفارنا! ـ حيث جاء الحث على تقليم الأظافر ـ ولكن الرسول ﷺ كان يتحمل كل هذا التجاسر وسوء الأدب بحلم تام.

وأمّا نبله وشهامته فقد وصلت إلى الحد الذي يعفو فيه عن أعدائه. كما كان لا يرى مظلوماً إلا وهبّ للدفاع عنه حتى يستردّ حقّه.

ففي الجاهلية كان النبي ﷺ شريكاً في حلف يُدعى «حلف الفضول» وهو غير ما كان بين أهل مكة من تحالفات أخرى كثيرة؛ إذ

جاء رجل غريب وباع تجارته في مكة لرجل من أهلها يسمّى «عاص بن وائل» الذي كان من أشراف مكة المتغطرسين دون أن يعطيه ثمن ما اشتراه. وكلّما قصد الرجل واحداً من أهل مكة عجز عن مساعدته في أخذ حقّه. فوقف على جبل «أبي قبيس» وصاح قـائلاً: يـا أبنـاء فهر، لقد ظُلمت! فلمّـا سـمع الرسـول ﷺ هـو وعمـه الزبيـر بـن عبدالمطلب استغاثة المظلوم انضمّا إلى الجمـع الـذي قـرر نـصرته والدفاع عنه كي يستعيد حقّه، فذهبوا إلى «عاص بن وائل» وطـالبوه بمال الرجل، فخشي بطشهم وأعطى للرجل ماله. وظلّ هـذا الحلـف قائماً، إذ قرر أعضاؤه نصرة كل غريب يعتدي عليه أهل مكة ـ الذين كانوا غالباً ما يظلمون الغرباء من غير أهل مكة ـ والدفاع عنـه حتـى أخذ حقّه.

وحتى بعد مجيء الإسلام بسنوات طويلة كان الرسول ﷺ يقول إنني مازلت أعتبر نفسي ملتزماً بذلك الحلف. وكم كان يعامل أعداءه المقهورين بسلوك لم يكونوا قادرين على فهمه وإدراكه؛ ففي الـسنة الثامنة للهجرة، وعندما دخل النبـي ﷺ مكـة فاتحـاً بكـل عظمـة واقتدار فإنه قال: «اليوم يوم المرحمة» ولم يثأر من أهلها. وهذه هـي شهامته ﷺ.

كما كان الرسول ﷺ معتمداً حيث كان يعمل بالتجارة في الجاهلية ـ كما ذكرنا ـ وكان يسافر إلى الشام واليمن ويسهم في قوافل التجارة ويشارك الآخرين.

ويقول أحد الذين شاركوه في زمن الجاهلية لقد كان أفضل شريك لي، فلم يكن يعاند ولا يجادل ولا يلقي بعبئه على كاهل الآخرين، ولا يتعامل مع الزبائن بسوء، ولا يبيع لهم بثمن باهظ، ولا يكذب عليهم؛ فقد كان صادقاً أميناً. ولهذا أعجبت به السيدة خديجة وهي السيدة الأولى في مكة وكانت شخصية بارزة في الحسب والنسب والثراء.

كما كان نظيفاً حسن الهندام في طفولته،كان نظيفاً في فتوته. وكذلك في شبابه كان يمشط شعره ولحيته، وحتى بعد الإسلام. عندما جاوز مرحلة الشباب وبلغ الخمسين أو الستين من عمره فإنه ظلّ ملتزماً بنظافته حتى إنه كان دائماً ما يسوّي لحيته وشاربه وشعره كلّما طال ويحافظ عليه نظيفاً ومعطّراً.

وقد قرأت في إحدى الروايات أنه كان لديه إناء في ماء في بيته، حيث لم تكن المرآة واسعة الانتشار آنذاك، وأنه «كان يسوّي عمامته ولحيته إذا أراد أن يخرج إلى أصحابه». ودائماً ما كان معطّراً، حتى

في أسفاره، فمع أنه كان زاهداً في حياته ـ كما سأبيّن فيما بعد ـ إلاّ أنه كان يحمل معه العطر والكحل حتى يكحل عينيه على ما كان سائداً بين الرجال في ذلك الزمان. كما كان يستخدم السواك مرات عديدة كل يوم، ويدعو الناس إليه. ويحثهم على النظافة وحسن الظاهر.

إن البعض يخطئون عندما يظنون بأن المظهر الحسن لابدّ وأن يكون مقترناً بالفخامة والإسراف. كلاّ، فبوسع المرء أن يرتدي لباساً مرقّعاً مع الحفاظ على الهندام الحسن والنظافة. لقد كانت ملابس رسول الله ﷺ مرقّعة وقديمة، ولكنها كانت نظيفة كرأسه ووجه ولحيته. وإن لمثل هذه الأمور تأثيراً كبيراً في العشرة والسلوك والشكل الظاهري والحالة الصحية. وإنها أمور تبدو وكأنها صغيرة في ظاهرها ولكنها كبيرة في معناها ومضمونها وباطنها.

وكان يعامل الناس معاملة حسنة؛ فقد كان دائماً طلق الوجه أمام الناس، ولم يكن يبدي لهم ما يعتمل صدره من هموم وأحزان. كما كان يسلّم على الجميع، وعندما كان يؤذيه أحد، فإنه لم يكن يشتكي مع ظهور آثار ذلك الأذى على ملامحه. وكان لا يسمح لأحد أن يسبّ الآخرين في مجلسه، ولم يكن هو نفسه يسبّ أحداً أو يتحدث بما يسيء الآخرين. وكان يداعب الأطفال، ويعطف على النساء،

ويحنو على الضعفاء، ويمازح أصحابه ويجاريهم في سباق الخيل. وكان فراشه ووسادته جلداً محشوّاً بأليـاف النخيـل. وكـان أغلـب طعامه خبز الشعير أو التمر. ولقد كتبوا بأنه لم يُشبع بطنـه أبـداً مـن خبز القمح ـ الأطعمة المنوّعة على مختلف ألوانها ـ. وتقول عائشة أم المؤمنين: ربما كـان يمـرّ الـشهر ولا يرتفـع لنـا دخـان. وكـان النبي ﷺ يركب الدابة بلا سرج ولا ركاب، وفي زمن كـان القـوم يتفاخرون بالخيل المطهمة ذات الأثمان الغالية كان يمتطـي الفـرس العادي، وكان متواضعاً، حيث كان يصلح نعله بيده ويرقعه بنفسه.

وهذا ما كان يفعله تلميذه البارز أمير المؤمنين عليه السلام كما نُقل عنـه كثيراً في الروايات.

ومع أنه كان لا يرى غضاضة في كسب المال عن طريق الحـلال وكان يقول: «نعم العون على تقوى الله الغنى»[1] إلا أنه كان يتـصدق على الفقراء بكل ما يصل إليه من مال، وكان قدوة في العبادة لدرجة أن قدميه كانتا تتورمان من طول الوقوف في محراب العبـادة. وكـان يقضي القسم الأكبر من الليل في العبادة والتضرع والبكاء والاستغفار والدعاء ومناجاة الله تعالى. وكان يصوم شهري رجب وشعبان فـضلاً

---

(١) الكافي: باب الاستعانة بالدنيا على الآخرة... ج٥ ص٧١.

عن شهر رمضان في ذلك الحرّ القائظ، إضافة إلى الكثير من أيام السنة كما سمعنا. وعندما كان أصحابه يقولون له: يا رسول الله، لماذا كل هذا الدعاء والاستغفار والعبادة وقد غفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟! فإنه كان يجيب «أفلا أكون عبداً شكوراً»(١)؟!

وكانت استقامته ﷺ بلا نظير في تاريخ البشرية، وهو ما جعله قادراً على ترسيخ هذا الكيان الإلهي الخالد والعظيم. وهل كان ذلك ممكناً بلا استقامة؟! فباستقامته بات واقعاً ملموساً؛ لقد ربّى أصحابه الكبار وأعدّهم باستقامته. ورفع عماد فسطاط المدينة الإنسانية الخالدة وسط صحراء الحجاز المقفرة ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۚ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ ...﴿١٥﴾﴾(٢). فهذه أخلاقيات الرسول ﷺ الشخصية.

الأخلاق الحكومية

وأما خُلُقه كحاكم، فقد كان عادلاً ومدبّراً؛ فالذي يقرأ تاريخ هجرته إلى المدينة، وتلك الحروب الشعواء بين القبائل، وتلك الغزوات الوحشية القبلية، وإخراج العدو من مكة إلى الفيافي، وتلك الضربات المتوالية، وذلك الصراع مع العدو المعاند، فإنه سيلاحظ

---

(١) الكافي: باب الشكر ..... ج٢، ص ٩٥.

(٢) من سورة الشورى.

مدى ما كان يتّصف به من تدبير شديد وحكيم وشامل بما يبعث على الدهشة، ممّا لا مجال لديّ الآن للاسهاب فيه.

كان ﷺ شديد الرعاية والحفاظ على القانون، ولم يكن يدع أحداً ينقض أحكام الشريعة أو يفرّط بالقانون، فضلاً عن نفسه، وكان يعتبر نفسه خاضعاً للقانون كما ينصّ القرآن على ذلك، فكان يطبق القانون على نفسه كما يطبقه على من هم سواه بلا أدنى تجاوز. وعندما غزا المسلمون بني قريظة فأسروا رجالهم وقتلوا خائنيهم وغنموا أموالهم ومتاعهم، فإن بعض أمّهات المؤمنين ومنهن زينب بنت جحش، وعائشة، وحفصة، قلن للنبي ﷺ: يا رسول الله، لقد غنمنا كل هذه الأموال من اليهود فاجعل لنا نصيباً فيها، إلاّ أنه لم يذعن لقولهن مع حبه واحترامه لهن، ومع أن أحداً من المسلمين لم يكن ليعترض عليه. فلمّا زاد إلحاحهنّ فإنه ﷺ اعتزلهنّ شهراً كاملاً على غير ما يُتوقع منه. ثم لم يلبث أن نزلت آيات سورة الأحزاب الشريفة ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ... ﴿٣٢﴾ ﴾[1]. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ

(١) من سورة الأحزاب.

﴿أَجْرًا عَظِيمًا ۝٢٩﴾[١]. فدعاهنّ الرسول ﷺ إلى الزهد واحترام القانون.

ومن خلقه أيضاً كحاكم ﷺ، انه كان يرعى العهود، ولم ينقض عهداً له أبداً. وعندما نقضت قريش عهده فإنه ظل راعياً له، وكذلك كان الحال مع اليهود الذين نقضوا عهده غير مرة.

كما كان ﷺ حافظاً للسر؛ فعندما خرج لفتح مكة فإنه لم يُعلِم أحداً بوجهته، فعبّأ الجيش بأجمعه ثم أمرهم بالخروج. وعندما سألوه: إلى أين؟ فإنه أجابهم: سيتضح ذلك فيما بعد. فلم يُخبر أحداً بأنه قاصد مكة، لدرجة أن أهل مكة لم يعلموا بقدومه حتى اقترابه منها!

ومن أهم مميزات سيرة النبي ﷺ أنه لم يكن ينظر إلى أعدائه نظرة واحدة؛ فالبعض كانوا له أعداءً ألدّاء، لكنه كان لا يمسّهم بسوء إذا لم يجد منهم خطراً. وأمّا الذين كان يلمس خطراً فيهم فإنه كان يراقبهم ويقف منهم على حذر كعبد الله بن أبيّ. فلقد كان عبد الله بن أبيّ منافقاً من الطراز الأول، وكان يتآمر على الرسول ﷺ، لكنّ الرسول ﷺ اكتفى بوضعه تحت الرقابة حتى آخر حياته. وقد

---

(١) من سورة الاحزاب.

مات ابن أُبيّ قبل وفاة النبي ﷺ بفترة وجيزة، لكنه ﷺ تحمله حتى النهاية.

لقد كان أولئك من الذين لا يشكلون خطراً شديداً على النظام والحكومة والمجتمع الإسلامي، ولكنه ﷺ كان شديداً على من يشكلون خطراً جسيماً.

إن ذلك الرجل الرحيم المتسامح هو الذي أمر بقتل الخائنين من بني قريظة ـ وكانوا عدة مئات ـ في يوم واحد، وهو الذي أخرج بني النضير وبني قينقاع وفتح خيبر، وذلك لما كانوا يمثلونه من خطر. لقد عاملهم الرسول ﷺ برفق لدى قدومه إلى المدينة، لكنهم خانوه وطعنوه من الخلف وتآمروا عليه وهدّدوه.

إنّ الرسول ﷺ تحمل عبد الله بن أبيّ، وتحمل يهود المدينة، وفتح صدره لمن استجار به ومن لم يؤذِه من قريش، كما عفا عن أهل مكة عند الفتح وفيهم أبو سفيان وأمثاله من كبار رجال مكة، حتى إنه أعطى بعضهم شيئاً من الامتيازات لأنهم لم يعودوا يشكلون خطراً. ولكنه مع ذلك تعقّب فلول الأعداء الألدّاء الذين لمح فيهم الغدر والخطر والخيانة وقمعهم بشدّة.

وقد كان هذا خلقه ﷺ كحاكم وقائد؛ فكان شديداً على الكفار رحيماً بالمؤمنين، وخاضعاً ومطيعاً لأمر الله وعبداً له بمعنى الكلمـة، وكان حريصاً على مصالح المسلمين..

ولم يكن ما تقدّم سوى خلاصة من أخلاقه ﷺ.

(الخطبة الأولى من صلاة الجمعة بتاريخ ١ صفر ١٤٢١ هـ)

الفصل الثاني

معالم النظام النبوي

سيرة النبي الأكرم ﷺ خلال حكم الإسلام في المدينة

تقترن هذه الأيام مع ذكرى رحيل نبي الإسلام الأعظم - الخيرة من البشرية على مر التاريخ والأب المعنوي للمسلمين وكافة المؤمنين بتكامل البشرية ورقيها ـ ومن واجبنا في ذكرى رحيل هذا العظيم أن نجسد الشكر بألسنتنا وأفئدتنا للجهود المضنية التي لم تعرف الكلل والمنقطعة النظير التي بذلها هذا الرجل الذي يمثل عصارة البشرية. كما تقترن هذه الأيام بذكرى شهادة سبط النبي الأكبر الإمام الحسن المجتبى وإمامنا الثامن علي بن موسى الرضا عليهما السلام، ولقد خصصتُ هذا الفصل لتقديم عرض موجز لسيرة النبي الأكرم ﷺ خلال فترة السنوات العشر من حكم الإسلام في المدينة، وهي واحدة من أزهى حقب التاريخ البشري، بل لا مبالغة إن قلنا هي أزهاها على الإطلاق. وحري بنا اعتبار هذه الحقبة الاستثنائية الزاخرة بالأعمال هي صاحبة التأثير على التاريخ البشري. وإنني أوصي الأخوة والأخوات جميعاً لاسيما الشباب منهم بمطالعة تاريخ حياة النبي ﷺ والاستلهام منها.

لقد كانت الفترة التي عاشها النبي ﷺ في المدينة هي الفصل الثاني من بعثته التي استمرت ثلاثة وعشرين عاماً، وفصلها الأول كان في مكة واستمر ثلاثة عشر عاماً ويعد مقدمة للفصل الثاني، أما السنوات العشر التي قضاها النبي ﷺ في المدينة فهي تمثل سني إرساء قواعد النظام الإسلامي وبناء أنموذج الحكم الإسلامي لجميع أبناء البشرية على مر التاريخ الإنساني في مختلف الأعصار والأمصار، وهذا الأنموذج كامل لا نجد له نظيراً في أي حقبة أخرى، وبمقدورنا من خلال إلقاء نظرة على هذا الأنموذج الكامل تحديد المعالم التي بها ينبغي لنبي البشر ومنهم المسلمون الحكم على الأنظمة وعلى الخلق؛ فلقد كانت غاية النبي ﷺ من هجرته إلى المدينة هي مقارعة الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي بظلمه وطاغوتيته وفساده الذي كان سائداً على الدنيا وقتها، ولم يكن الهدف مكافحة كفار مكة وحسب، بل القضية ذات بعد عالمي أيضاً.

معالم النظام النبوي

كان النبي الأكرم ﷺ يتعقّب ذلك الهدف، فكان يغرس بذور الفكر والعقيدة أينما وجد الأرضية مناسبة لذلك، على أمل أن تخضر تلك البذور في الوقت المناسب، وغايته من ذلك كانت إيصال رسالة

الحرية والنهوض وسعادة الإنسان إلى كافة القلوب، وذلك ما يتعـذّر إلاّ عن طريق إقامـة النظـام النمـوذجي القـدوة، لـذلك فقـد جـاء النبي ﷺ إلى المدينة لإقامة مثل هذا النظام النموذجي، أما مـا هـو القدر الذي يسع الأجيـال اللاحقـة مواصـلته والاقتـراب مـن هـذا النموذج فذلك منوط بهم؛ فالنبي ﷺ يبني النموذج ويقدمه للبشرية والتاريخ، والنظام الذي شيّده النبي ﷺ كانت له الكثير من المعـالم، أبرزها وأهمها سبعة هي:

الأول: الإيمان والمعنويات

إنّ الدافع والماكنة الحقيقية التي تدفع بالنظام النبوي إلى الأمـام هو الإيمان المنبثق من قلوب الناس وعقولهم ويأخـذ بكيـانهم نحـو طريق الصواب. إذن المعلم الأول يتمثل فـي تحريـك روح الإيمـان والمعنويات وترسيخها وتغذية أبناء الأمة بالمعتقـد والفكـر الـسليم، وهذا ما باشر بـه النبـي ﷺ فـي مكـة ورفـع رايتـه فـي المدينـة بكل اقتدار.

الثاني: العدل والقسط

فكان منطلق العمل يقوم على أساس العدل والقسط وإعطاء كل ذي حق حقه دون أدنى مجاملة.

الثالث: العلم والمعرفة

فأساس كل شيء في النظام النبوي هو العلم والمعرفة والوعي واليقظة، فهو لا يحرك أحداً نحو اتجاه معين حركة عمياء، بل يحوّل الأمة عن طريق الوعي والمعرفة والقدرة على التشخيص إلى قوة فعالة وليست منفعلة.

الرابع: الصفاء والأخوة

فالنظام النبوي ينبذ الصراعات التي تغذيها الدوافع الخرافية والشخصية والمصلحية والنفعية ويحاربها، فالأجواء هي أجواء تتّسم بالصدق والأخوة والتآلف.

الخامس: الصلاح الأخلاقي والسلوكي

فهو يزكي الناس ويطهرهم من رذائل الأخلاق وأدرانها، ويصنع إنساناً خلوقاً زاكياً ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ...﴿٢﴾﴾[1]، فالتزكية هي إحدى المرتكزات الأساسية التي كان يستند إليها النبي ﷺ في عمله التربوي مع أبناء الأمة فرداً فرداً لبناء الإنسان.

---

(١) من سورة الجمعة.

السادس: الاقتدار والعزة

فالمجتمع والنظام النبوي لا يتميز بالذيلية والتبعية والتسوّل من الآخرين، بل يتميز بعزته واقتداره وقدرته على اتخاذ القرار؛ فهو متى ما شخَّص موطن صلاحه سعى إليه وشق طريقه إلى الأمام.

السابع: العمل والنشاط والتقدم المطرد

فلا وجود للتوقف في النظام النبوي، بل الحركة الدؤوبة والتقدم الدائم، ولا معنى لدى أبنائه للقول إن كل شيء قد انتهى فلنركن إلى الدعة! وهذا العمل ــ بطبيعة الحال ــ مبعث لذة وسرور وليس مدعاة للكسل والملل والإرهاق، بل هو عمل يمنح الإنسان النشاط والطاقة والاندفاع.

قَدمَ النبي ﷺ إلى المدينة ليقيم هذا النظام ويعمل على تكامله ويجعله أنموذجاً إلى أبد الدهر، ليقتدي به اللاحقون على امتداد التاريخ ممن تتوفر لديهم القدرة على إقامة نظام مماثل له، ليزرعوا الاندفاع في القلوب كي يغذّ بنو البشر السير نحو إيجاد مثل هذا المجتمع. وبديهي أن تحتاج إقامة مثل هذا النظام إلى دعائم عقائدية وإنسانية، فلابدّ من أمور:

دعائم النظام

أولاً: من وجود معتقدات وأفكار سليمة كي يقام هذا النظام على أساسها؛ وقد بيّن النبي ﷺ هذه الأفكار والرؤى في إطار كلمة التوحيد والعزة الإنسانية وسائر المعارف الإسلامية خلال فترة السنوات الثلاث عشرة التي أمضاها في مكة، ثم علمها وفهمها الآخرين بشكل متواصل وعلى مدى لحظات حياته حتى وافاه الأجل في المدينة.

ثانياً: من الضروري وجود القواعد والدعائم الإنسانية كي يستقيم هذا البناء عليها، وذلك يعود إلى عدم ارتكاز النظام الإسلامي على فرد معين.. وقد باشر النبي ﷺ بإعداد هذه الأعمدة في مكة؛ فكان منهم مجموعة من كبار الصحابة ـ على اختلاف مراتبهم ـ هم ثمرة الجهود المضنية والجهاد المرير خلال فترة السنوات الثلاث عشرة في مكة، فيما كانت هنالك مجموعة من الذين تغذوا على رسالة النبي ﷺ قبل قدومه إلى المدينة من قبيل سعد بن معاذ وأبي أيوب وغيرهما.

ولما حلّ النبي ﷺ في المدينة باشر منذ دخوله فيها بعملية بناء الإنسان، ومع مرور الأيام أخذت ترد إلى المدينة شخصيات تتّسم

بجدارتها الإدارية وجلالة القدر والشجاعة والتضحية والإيمان والاقتدار والمعرفة حتى أصبحت عماداً صلبة لهذا الصرح الشامخ الرفيع.

لقد كانت هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ـ التي كانت تسمى قبل حلوله فيها «يثرب» ثم سميت «مدينة النبي» بعد دخوله لها ـ بمثابة نسائم ربيع عمّت أجواء المدينة فشعر أهلها كأنّ انفراجاً حل فيهم جذب القلوب وأيقظها؛ فحينما سمع أهل المدينة بوصول النبي ﷺ إلى قبا ـ وهي على مقربة من المدينة ومكث فيها خمسة عشر يوماً ـ كان الشوق للقيادة يغلي في قلوبهم يوماً بعد يوم، وكان بعضهم يتوجه إلى قبا لرؤية النبي ﷺ فيما بقي الآخرون ينتظرونه في المدينة، وعندما دخل النبي ﷺ المدينة تبدل ذلك الشوق وذلك النسيم إلى عاصفة ألهبت قلوب الناس فغيرتها، وسرعان ما نما لديهم الشعور بأن جميع ما لديهم من متبنيات وعواطف وارتباطات وعصبيات قبلية قد ذابت بطلوع محيّا هذا الرجل وسلوكه ومنطقه، واطلعوا على نافذة جديدة تطل بهم نحو حقائق عالم الخلق والمعارف الأخلاقية، فكان أن أحدثت هذه العاصفة تغييراً في القلوب بادئ الأمر ثم امتدت إلى تخوم المدينة لتخرج فيما بعد إلى

قلاع مكة فتسخرها لتنطلق في خاتمة المطاف لتشق طريقها إلى ما هو أبعد فتقدم إلى أعماق إمبراطوريتي ذلك الزمان، وحيثما توجهت فإنها تحيي القلوب وتغير بواطن البشر؛ ففي صدر الإسلام فتح المسلمون بقوة إيمانهم بلاد إيران والروم، وأيّما قوم طالهم هجوم المسلمين كان الإيمان يداعب قلوبهم بمجرد رؤيتهم للمسلمين.

كانت الغاية من السيف إزالة العراقيل عن الطريق والقضاء على أقطاب الأثرياء والناهبين، أما السواد الأعظم من الناس فقد استقبل هذه العاصفة، فكان أن نفذ الإسلام إلى أعماق إمبراطوريتي الزمان ـ أي إيران والروم ـ وأصبحتا جزءاً من النظام والدولة الإسلامية. وكل ذلك حصل في ظرف أربعين سنة، عشر منها في عهد الرسول ﷺ وثلاثون منها بعد رحيله.

لقد باشر النبي ﷺ عمله بمجرد أن حل في المدينة، ومن العجائب التي حفلت بها حياته ﷺ أنه وطوال تلك السنوات العشر لم يهدر لحظة واحدة، فلم يُرَ ﷺ غافلاً عن إنارة مشعل الهداية والمعنويات والتعليم والتربية ولو لحظة واحدة؛ فلقد كانت يقظته ونومه، مسجده وداره، دخوله لساحة الحرب، مسيره في الطرقات والأسواق، معاشرته لأسرته، وكل وجوده أينما حلّ، درساً.

يا لها من بركة زخر بها هذا العمر! فالشخص الذي شغل التاريخ برمته وترك بصماته عليه ـ ولقد قلت مراراً إن الكثير من المفاهيم التي اكتست وشاح القدسية على مدى القرون التالية من قبيل المساواة والأخوة والعدالة وحاكمية الأمة، إنما هي متأثرة بتعاليمه ﷺ ولم يكن لها أثر في تعاليم سائر الأديان أو لم يقدر لها البروز على أقل تقدير ـ كان نشاطه الحكومي والسياسي والاجتماعي قد دام عشراً من السنين لا غير! فيا لها من حياة ميمونة!

في كيفية اختياره ﷺ محل إقامته

لقد حدد ﷺ موقفه منذ الوهلة الأولى لدخوله المدينة، فلما دخلت ناقته يثرب أحاط بها الناس؛ يومها كانت يثرب مقسمة إلى أحياء تضم بيوتاً وأزقة ومتاجر كل منها يعود لواحدة من القبائل التابعة إما للأوس أو الخزرج.. كانت الناقة تمر من أمام قلاع هذه القبائل فيخرج كبارها ويأخذون بركاب الناقة منادين: يا رسول الله، هذه ديارنا وثرواتنا وأموالنا كلها في خدمتك، فكان الرسول ﷺ يقول لهم: دعوا الناقة فإنها مأمورة، لكن كبار القوم وأشرافهم، شيوخهم وشبابهم اعترضوا ناقة النبي ﷺ قائلين: انزل هنا يا رسول الله؛ فالدار دارك وكل ما لدينا في خدمتك، لكنه ﷺ كان يقول

لهم: دعوا الناقة فإنها مأمورة. وهكذا طوت الناقة الطريــق حيــاً بعــد حيّ حتى وصلت حي بني النجار الذين تنتمي إليهم أم الرسول ﷺ، ونظراً لأنهم يعتبرون أخوال النبي ﷺ فقد جاؤوه وقالوا: يا رســول الله! إن لنا بك لقرابة فــانزل عنــدنا، فقــال ﷺ: دعــوا الناقــة فإنهــا مأمورة، فانطلقت الناقة حتى حطت رحالها في أكثر أحيــاء المدينــة فقراً، فمدّ الناس أعناقهم ليعرفوا مَنْ صاحب الدار التي حطــت بهــا الناقة، فإذا به أبو أيوب الأنصاري أفقر أهل المدينة أو أحد فقرائها.

عمد أبو أيوب الأنصاري وعياله الفقــراء المعــوزون إلــى أثــاث النبي ﷺ فنقلوه إلى دارهم وحل النبي ﷺ ضيفاً عليهم، فيمــا رد الأعيان والأشراف والمتنفذين وذوو الأنساب وأمثالهم؛ أي أنه حــدّد موقعه الاجتماعي فاتضح من خلال ذلك عــدم تعلــق هــذا الرجــل بالثروة والنسب القبلي والزعامات القبلية والانتماء الأسري والعــائلي وعدم ارتباطه بالمتحايلين الوقحين ولن يكون كذلك، فهو ﷺ حدد منذ الوهلة الأولى طبيعة سلوكه الاجتماعي وأيّاً مــن الفئــات يــساند ولأيّ من الطبقات ينحاز ومَنْ هم الذين سينالون القسط الأوفــر مــن فائدة وجوده.. فالجميع كانوا ينتفعون من وجود النبي ﷺ وتعاليمه، بيد أن الأكثر حرماناً كان أكثر انتفاعاً منه، دافعه في ذلــك التعــويض عن حرمانه.

كانت قبالة دارة أبي أيوب الأنصاري قطعة أرض متروكة فسأل ﷺ عن صاحبها، فقيل إنها ليتيمين، فدفع لهما ثمنها واشتراها ثم أمر ببناء مسجد عليها، فكان بمثابة مركز سياسي عبادي اجتماعي وحكومي ومركز يتجمع فيه الناس، فكانت الضرورة تقتضي بناء مركز يمثل المحورية، من هنا فقد باشروا ببناء المسجد، ولم يطلب ﷺ قطعة أرض من أحد أو يستوهبها، بل اشتراها بأمواله، وبالرغم من عدم وجود محام عن هذين اليتيمين فإن النبي ﷺ راعى الدقة في أداء حقوقهما كاملة تامّةً كالأب والمدافع عنهما. وعندما باشروا ببناء المسجد كان النبي ﷺ من أوائل المسلمين ـ أو أولهم ـ ممن أمسك بالمعول وباشر بحفر أرض المسجد، ولم يكن عمله رمزياً بل كان عملاً حقيقياً بحيث كان العرق يتصبب منه ﷺ، فكان عمله بالمستوى الذي أثار بعض الذين تنحوا جانباً، فقالوا: أنجلس والرسول يعمل؟! فلنذهب ونعمل، فجاؤوا وانهمكوا في العمل حتى شيّدوا المسجد خلال برهة وجيزة، وبذلك أثبت النبي ﷺ ـ ذلك القائد العظيم ـ أنه لا يرى أي حقّ لشخصه، فإذا ما كان هنالك عمل فلابد أن تكون له مساهمة فيه.

ثم إنه ﷺ وضع الأطر الإدارية والسياسية لذلك النظام، ولو أن المرء ألقى نظرة على التطور الذي خطاه بذكاء وفطنة لأدرك أي

عقل وفكر ودقة وحنكة تقف وراء تلك العزيمة والإرادة القاطعة الصلبة التي لا يمكن تحققها ظاهراً إلاّ برفد من الوحي الإلهي، وحتى يومنا هذا فإن الذين يحاولون تتبع وقائع تلك السنوات العشر خطوة فخطوة فإنهم يعجزون عن استيعاب أي شيء، وإذا ما حاول المرء دراسة كل واقعة على حدة فإنه لا يدرك منها شيئاً، بل عليه أن يدقق النظر ويلحظ تسلسل الأعمال وكيفية انجاز كل تلك المهام بتدبير ووعي وحسابات دقيقة.

كانت الخطوة الأولى تتمثل في إرساء الوحدة، فلم يدخل أهل المدينة بأجمعهم الإسلام، بل أكثرهم اعتنق الإسلام، فيما بقيت القلة منهم خارج إطار الإسلام، بالإضافة إلى أن ثلاثاً من قبائل اليهود المهمة كانت تقطن المدينة، في القلاع الخاصة بهم على مقربة من المدينة وهي قبائل بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، وهذه القبائل جاءت إلى المدينة قبل قرن أو قرنين من ذلك التاريخ، وقصة مجيئهم إلى المدينة قصة طويلة لها تفاصيلها، وعند دخول النبي ﷺ إلى المدينة كانت لهؤلاء اليهود ثلاث مزايا:

مزايا يهود المدينة

أولاها: سيطرتهم على الثروات الأساسية في المدينة وأهم مزارعها وتجارتها ومنافعها وأهم صناعاتها التي تدرّ بالأرباح وهي صناعة الذهب وغيرها، والغالبية من أهل المدينة كانوا يرجعون إليهم لسد حوائجهم والاستلاف منهم وتسديد الربا إليهم؛ أي أنهم كانوا يقبضون على كل شيء من الناحية الاقتصادية.

ثانيها: تفوقهم على أهل المدينة من الناحية الثقافية؛ فهم كانوا أصحاب كتاب وعلى اطلاع على مختلف المعارف والعلوم الدينية والمسائل التي تجهلها عقول أهل المدينة ذات الطبيعة شبه الهمجية. من هنا فقد كانت لهم الهيمنة الفكرية، وإذا ما أردنا وصفهم وفقاً للمصطلحات المعاصرة فبإمكاننا القول إنهم كانوا يشكلون طبقة مثقفة، لذلك كانوا يستهينون بأهل المدينة ويسخرون منهم، وربما كانوا يتصاغرون حينما يتعرضون للأخطار أو عند الضرورة، غير أن التفوق كان لهم في الحالات الطبيعية.

ثالثها: اتصالهم بالمناطق النائية عن المدينة، فلم يتقوقعوا في إطار حدود المدينة.

إنّهم كانوا يمثلون واقعاً قائماً في المدينة، فكان على النبي ﷺ وضعهم في الحسبان..

فكان أن أوجد ﷺ ميثاقاً عاماً جماعياً، فلدى حلول النبـي ﷺ في المدينة اتضح أن قيادة مجتمعها إنما هي منحـصرة بـه ﷺ دون أن يبرم عقداً أو يطلب شيئاً من الناس أو يدخل فـي مباحثـات مـع أحد، أي أن عظمته وشخصيته سخرت الجميع أمامـه، لقـد تجلـت قيادته وعلى الجميع التحرك والمبادرة حول محوريته، والميثاق الذي سار عليه النبي ﷺ أصبح موضع قبول من لدن الجميع، فكان شاملاً للسلوك الاجتماعي: المعاملات، النزاعات، الدية، علاقة النبـي ﷺ مع معارضيه وموقفه من اليهود ومن غير المسلمين، وكل ذلـك كـان مدوناً ومفصلاً ولعلـه يحتـل صـفحتين أو ثلاثـاً كبـاراً مـن كتـب التواريخ القديمة.

إشاعة روح الأخوة

الخطوة الثانية كانت في غاية الأهمية وهي إشاعة روح الأخـوة؛ فلقد كانت الأشرافية والعـصبيات الخرافيـة والأبّهـة القبليـة وحالـة الانفصال بين مختلف الطبقات أبرز الأمراض التي كانت تعاني منهـا المجتمعات الجاهلية العربية يومذاك؛ والنبي ﷺ بإشـاعته للأخـوّة سحق هذه النعرات تحت قدميه، فلقد آخى بين رئيس القبيلـة وبـين من هو بمستوى دانٍ أو متوسط، وهؤلاء بدورهم ارتضوا هذه الأخوة طائعين، ووضع السادة والأشراف إلى جانب العبيـد مـن المـسلمين

والمعتقين، وبذلك فقد قضى على العوائق في طريق الوحدة الاجتماعية.

المناط في الإسلام إنما هو العمل

عندما أراد ﷺ اتخاذ مؤذن لمسجده، كان ذوو الحناجر الجهورية والهندام الجميل والمشاهير من الشخصيات من الكثرة بمكان، لكنه اختار من دونهم بلال الحبشي الذي كان يفتقد الجمال والصوت الحسن والشرف العائلي والنسبي، فالمناط كان الإسلام والإيمان والجهاد والتضحية في سبيل الله لا غير. لاحظوا كيف أنه ﷺ حدد القيم على صعيد العمل؛ فقبل أن يترك كلامه بصماته على القلوب، كانت أعماله وسيرته وهديه هي التي تؤثر.

وبغية إنجاز هذه المهمة كانت هنالك ثلاث مراحل هي:

المرحلة الأولى: إرساء قواعد النظام عبر هذه الممارسات.

والمرحلة الثانية: صيانة النظام؛ فمن الطبيعي أن يكون هنالك من يعادي هذا الكيان المتنامي المتعاظم الذي لو أحسَّ به الطواغيت لشعروا بالخطر إزاءه، ولو لم تكن لدى النبي ﷺ القدرة على الدفاع عن هذا الوليد الميمون بحنكة في مقابل الأعداء، فسيزول هذا النظام وتذهب جهوده سدى، فلابد له من صيانته.

أما المرحلة الثالثة: فهي عبارة عن إكمال البناء وإعماره، فلا تكفي عملية الإرساء بل هي الخطوة الأولى.

وهذه المراحل الثلاث تسير إلى جانب بعضها عرضياً.

إن عملية إرساء القواعد تأتي بالدرجة الأولى بيد أنه يتعين الحذر من العدو أثناءها، وهكذا تأتي مرحلة الصيانة، حيث يتم خلالها الاهتمام ببناء الأشخاص والكيانات الاجتماعية ومن ثم تتواصل المراحل اللاحقة.

أعداء النظام النبوي

كان النبي ﷺ يرى أن ثمة خمسة أصناف من الأعداء يتربصون بهذا المجتمع الفتي وهم عبارة عن:

العدو الأول: القبائل الهمجية المحيطة بالمدينة

وهو عدو ضئيل الأهمية ومحدود، ولكن ينبغي عدم التغافل عنه في نفس الوقت، فلربما يتسبب في بروز خطر داهم. من هو هذا العدو؟ إنه القبائل شبه الهمجية التي تحيط بالمدينة؛ فعلى بعد عشرة أو خمسة عشر أو عشرين فرسخاً من المدينة تعيش قبائل جل حياتها عبارة عن تقاتل وإراقة للدماء وإغارة ونهب وسلب، وإذا كان النبي ﷺ يصبو إلى إقامة مجتمع سليم آمنٍ ووادع في المدينة فما

عليه إلا أن يحسب لهؤلاء حسابهم، وهكذا فعل ﷺ، حيث تعاهد مع مَنْ تتوفر فيه إمارات الصلاح والهداية، ولم يبادرهم بالدعوة للإسلام بادئ الرأي، بل عاهدهم مع بقائهم على كفرهم وشركهم بغية تجنب تحرشاتهم.

لقد كان النبي ﷺ ملتزماً بتعهداته ومواثيقه وهذا ما سأتطرق إليه أيضاً، لكنه لاحق الأشرار ومَن لا عهد لهم وعالج مشكلتهم، وما طرق أسماعكم من بعث النبي ﷺ للسرايا، حيث كان يرسل الخمسين أو العشرين من المسلمين في سرايا، إنما كان لملاحقة هؤلاء الذين تأبى طبيعتهم الوئام والهداية والصلاح ولا يستقر لهم حال إلا بإراقة الدماء والتوسل بالقوة، فكان أن لاحقهم النبي ﷺ وقمعهم وأخمد نارهم.

العدو الثاني: قريش

كانت مكة بمثابة المحور، وبالرغم من عدم وجود حكومة بالمعنى المتعارف عليه فيها، بيد أن ثمة مجموعة من الأشراف المتكبرين العتاة المتنفذين كانت تحكم مكة، وهم على اختلافهم كانوا متحدين بوجه هذا المولود اليافع الجديد، وكان النبي ﷺ على علم بأن الخطر الجسيم إنما ينطلق منهم، وقد حصل ذلك

عملياً. وكان الشعور يراود النبي ﷺ بأنه لو توانى حتى يداهموه هم فإن الحظ سيحالفهم، لذلك فقد تتبعهم لكنه لم يقصد مكة، بل اعترض قافلتهم التي كانت تمر على مقربة من المدينة فكانت معركة بدر أهم عمليات التعرّض وتمثل باكورة عمله. لقد تعرض لهم النبي ﷺ فجاؤوا لحربه تدفعهم العصبية والعناد والإصرار. واستمر الوضع على هذه الحالة لمدة أربع أو خمس سنوات؛ أي أن النبي ﷺ لم يتركهم وشأنهم، وكانوا في المقابل يمنّون أنفسهم باستئصال هذا الوليد الجديد - أي النظام الإسلامي ـ الذي يتحسسون منه الخطر، وعلى هذا الصعيد جاءت معركة أحد وغيرها من المعارك.

كانت معركة الخندق آخر المعارك التي شنوها ضد النبي ﷺ ـ وهي واحدة من أهمها - حيث استجمعوا قواهم واستعانوا بالآخرين أيضاً للقضاء على النبي ﷺ وعدة مئات من أصحابه المقربين ـ حسب زعمهم ـ ونهب المدينة ثم يعودون وقد ارتاحت خواطرهم حيث لا أثر للنبي ﷺ وأصحابه؛ وقبل قدومهم نحو المدينة كان النبي ﷺ قد علم بالأمر فبادر إلى حفر خندق عرضه أربعين متراً تقريباً من الجهة التي يسهل اختراقها. كان ذلك في شهر

رمضان والمناخ قارص البرودة كما تنقل الروايات، ولم يهطل المطر في ذلك العام، من هنا فقد عمّ الجدب وعانى الناس من المصاعب.

كان النبي ﷺ أكثر الناس عملاً في حفر الخندق؛ فحيث وقعت عيناه على مَن أعياه العمل وأصيب بالإرهاق أو عجز عن المواصلة، كان ﷺ يتناول معوله ويمارس العمل والبناء بدلاً عنه؛ فلم يسجل حضوره بإصدار الإيعازات فقط، بل كان يشارك المسلمين بكيانه ووجوده أيضاً، ولمّا رأى الكفار الخندق ولمسوا عجزهم أصيبوا بالإحباط والهزيمة وافتضح أمرهم، وأخيراً اضطروا للانسحاب، إذ ذاك نادى النبي ﷺ بأن الأمر قد انتهى، وهذه كانت آخر المعارك التي يشنها كفار مكة ضد المسلمين، وقد حل دور المسلمين للتوجه نحو مكة.

بعد عام من تلك الواقعة أراد النبي ﷺ التوجه إلى مكة لأداء العمرة ــ وأثناء ذلك وقع صلح الحديبية الغني بالمعاني والأهداف ــ وكان مسير النبي ﷺ إلى مكة في شهر محرم الحرام ــ حيث كانوا يحرمون فيه القتال ــ فأصبحوا في حيرة من أمرهم ما عساهم صانعين؛ أيسمحون له بالتقدم في مسيره؟ وماذا سيفعلون إزاء نجاحه هذا، وكيف يواجهونه؟ أيقاتلونه وهم في شهر محرم؟ وكيف

يقاتلونه؟ وأخيراً قرروا عدم السماح لـه وإبادتـه هـو وأصـحابه إن سنحت لهم الفرصة.

تميز تصرف النبي ﷺ بأسمى درجات التدبير، حيـث قـام بمـا دفعهم لأن يجلسوا مع النبي ﷺ ويبرموا معه صلحاً لكي يعود إلـى المدينة على أن يأتي في العام القادم لأداء العمرة، وتفتحت الأجـواء جميعها أمام النبي ﷺ من أجل التبليغ؛ كـان ذلك صـلحاً، بيـد أن البـاري تعالـــى يـصرح فـــي كتابـه بـالقول: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾[1]**. ومن يراجع مصادر التـاريخ المتقدمـة والـصحيحة يجـد العجب في واقعة صلح الحديبية.**

وفي العام التالي توجه النبي ﷺ لأداء العمرة وأخـذت شـوكته تزداد قوة يوماً بعد يوم، ولما نقض الكفار العهد فـي العـام اللاحـق ـ أي العام الثامن للهجرة – تقدم نحوهم النبي ﷺ وفتح مكة، فكان فتحاً عظيماً ينبئ عن اقتدار النبي ﷺ وتمكنه. وتأسيساً على ذلـك فقد اتسم تعامل النبي ﷺ مع هذا العدو بالتدبير والاقتـدار والتـأني والصبر بعيداً عن الارتباك، ولم يتراجع أمامه ولو خطوة واحدة، بـل كان يتقدم نحوه يوماً بعد يوم وآناً بعد آن.

---

(١) من سورة الفتح.

العدو الثالث: اليهود

وهم الدخلاء الغدرة الذين سرعان ما عبروا عن استعدادهم لمعايشة النبي ﷺ في المدينة لكنهم لم يقلعوا عن أعمال الإيذاء والتخريب والخيانة، ولو تمعنتم جيداً في سورة البقرة وبعض السور الأخرى من القرآن الكريم لوجدتم أنها تختص بطريقة تعامل النبي ﷺ وصراعه الثقافي مع اليهود؛ فقد تقدم القول بأن هؤلاء كانوا على قدر من العلم والوعي وذوي تأثير كبير على أفكار ضعاف الإيمان من الناس ويحيكون الدسائس ويزرعون اليأس في قلوب الناس ويثيرون الفتن بينهم، فكانوا يمثلون عدواً منظماً، فكان النبي ﷺ يسلك معهم سبيل المداراة ما أمكنه، لكنه لما لمس منهم عدم استجابتهم لهذه المداراة بادر إلى معاقبتهم، ولم تأت مباغتة النبي ﷺ لهم دون سبب أو مقدمات، بل إن كلاً من هذه القبائل الثلاث ارتكبوا أفعالاً فعاقبهم النبي ﷺ بما يوازي فعلتهم؛

فلقد خان بنو القينقاع النبي ﷺ فتوجه نحوهم وأمرهم بالجلاء وأخرجهم من ديارهم تاركين ثرواتهم للمسلمين.

والفئة الثانية هم بنو النضير الذين خانوا النبي ﷺ أيضاً ـ وقصة خيانتهم مهمة ـ فأمرهم النبي ﷺ بحمل بعض أمتعتهم والرحيل.

أما الفئة الثالثة وهم بنو قريظة فقـد مـنحهم النبـي ﷺ الأمـان وسمح لهم بالبقاء في المدينة ولم يبعدهم عنها، وأبـرم معهـم عقـداً على أن لا يسمحوا للعدو بالتسلل من أحيائهم في معركـة الخنـدق، لكنهم غدروا وتعاقدوا مع العدو على الوقـوف إلـى جنبـه لمقاتلـة النبي ﷺ؛ أي أنّهم لم يكتفوا بتنصلهم عن عهدهم مـع النبـي ﷺ، بل في الوقت الذي بادر رسول الله ﷺ إلى حفر الخندق في الجهـة التي يسهل اختراقها وسلّمهم الجهة التي تقع عليها أحياؤهم ليمنعـوا العدو من التسلل عبرها، ذهبوا للتفاوض والحوار مع العدو ليـدخلوا معاً من تلك الجهة ويطعنوا النبي ﷺ من الخلف.. وفي تلك الأثناء علم الرسول ﷺ بهذه المؤامرة، وكان حـصار المدينـة قـد اسـتمر شهراً، وقد وقعت خيانة هؤلاء في منتصف هـذا الـشهر، فلجـأ ﷺ إلى عمل في غاية الذكاء ألقى من خلاله الوقيعة بينهم وبـين قـريش ـ ووردت تفاصيله في كتب التاريخ ـ فقـد قـام ﷺ بعمـل أطـاح بالثقة التي تربطهم مع قـريش، وفيـه تجلّـت واحـدة مـن الخطـط السياسية العسكرية الرائعة للرسول الأكرم ﷺ؛ أي أنه ﷺ عاجلهم ليوقفهم عن توجيه أية ضربة للمـسلمين، وحينمـا انهزمـت قـريش وحلفاؤها وابتعدوا عن الخندق وقفلـوا راجعـين إلـى مكـة صـلى

النبي ﷺ الظهر، ثم دعا إلى صلاة العصر قبالة قلاع بني قريظة، فتوجه نحوهم؛ أي أنه لم يمهلهم ولو ليلة واحدة، فحاصرهم لمدة خمسٍ وعشرين يوماً تواصلت خلالها المناوشات بين الطرفين، ثم إن النبي ﷺ قتل مقاتليهم لفداحة خيانتهم وعدم إمكانية إصلاحهم.

هكذا تميز تعامل النبي ﷺ مع هؤلاء ـ أي اليهود ـ فقد اتسم بالتدبير والقوة والإصرار المقترن بالأخلاق الإنسانية العالية، لإزالة هيمنة اليهود من بني قريظة ومن قبلهم بني النضير وأخيراً يهود خيبر، وفي كل هذه المواطن لم ينقض النبي ﷺ عهداً أبداً، وهذا ما يذعن له حتى أعداء الإسلام، بل أولئك هم الذين نقضوا العهود.

العدو الرابع: المنافقون في داخل المدينة

الذين آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، بُلداء معاندون يتميزون بضيق الرؤية والقابلية على التعاون مع العدو، لكنهم يفتقدون التنظيم وهذا ما يميزهم عن اليهود.

لقد كان النبي ﷺ يتعامل مع العدو المنظم الواثب لمهاجمة المسلمين كتعامله مع اليهود ولم يمهلهم أبداً، لكنه كان يتحمل العدو غير المنظم ممن تلوث أفراده بالعناد والخبث والعداء والكفر؛ فلقد كان عبد الله بن أُبيّ من ألدّ أعداء النبي ﷺ وقد عاصر

الرسول ﷺ حتى آخر سنة من عمره تقريباً، ولم يسئ ﷺ التعامل معه مع علم الجميع بنفاقه، وكان ﷺ يداريه ويعامله كباقي المسلمين من حيث عطائه من بيت المال وصيانة أمنه وحرمته، كان ذلك منه ﷺ بالرغم من خبث هذه الفئة وإساءتها، وفي سورة البقرة مقطع يختص بهؤلاء المنافقين.

ولمّا اتخذ تجمع بعض المنافقين طابع التنظيم بادر إليهم النبي ﷺ، كما في قضية مسجد ضرار حيث اتخذوا منه مركزاً وأقاموا اتصالات مع عناصر من خارج النظام الإسلامي من قبيل الراهب أبي عامر من بلاد الروم، وأعدوا مقدمات تحشيد الجيوش لمحاربة النبي ﷺ، فبادر إليهم النبي ﷺ وهدم المسجد الذي بنوه وأحرقه، معلناً أنه ليس بمسجد بل بؤرة للتآمر على المسجد وعلى اسم الله والمسلمين! أو تلك الحفنة من المنافقين الذين أعلنوا كفرهم وخرجوا من المدينة وحشدوا قواهم فقاتلهم النبي ﷺ وقال: لئن دنَوا من المدينة لأخرجن لقتالهم. وإن سالم ﷺ المنافقين في داخل المدينة ولم يتعرض لهم أبداً.

وهكذا فقد واجه النبي ﷺ الفئة الثالثة مواجهة منظمة صارمة، لكنه سلك طريق المداراة مع الفئة الرابعة لافتقادهم التنظيم،

والخطر الصادر منهم يمثل خطراً فردياً، كما أنه ﷺ كان يؤنبهم بسلوكه أيضاً.

العدو الخامس: الأهواء النفسية

الذي هو عبارة عن العدو الكامن في باطن كل مسلم ومؤمن وهو الأخطر من بين جميع الأعداء، وهذا العدو معشعش فينا أيضاً، إنه الأهواء النفسية والأنانية والجنوح نحو الانحراف والضلال والانزلاق الذي يصطنعه الإنسان نفسه.

وقد خاض النبي ﷺ مع هذا العدو صراعاً مريراً، غاية الأمر أن آلة الصراع مع هذا العدو لا تتمثل بالسيف، بل التربية والتزكية والتعليم والتحذير، فلما عاد المسلمون من الحرب قال لهم الرسول ﷺ: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر[1]. فتعجب المسلمون من قوله وسألوه: ما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟! لقد خضنا غمار هذا الجهاد المرير، فهل من جهاد أكبر منه؟! قال: نعم، إنه جهاد النفس. فإذا ما صرح القرآن الكريم: ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ... ﴿٣١﴾﴾[2] فذلك لا يعني أنهم منافقون، بل بعض

---

(١) الكافي باب وجوه الجهاد ..... ج٥، ص١٢.

(٢) من سورة المدثر.

المنافقين في عداد الذين في قلوبهم مرض، ولكن ليس كل «الذين في قلوبهم مرض» من المنافقين، فربما يكون المرء مؤمناً لكنه في قلبه مرض، فماذا يعني هذا المرض؟ إنه يعني ضعف الأخلاق والشخصية، والشهوانية والجنوح نحو مختلف الأهواء التي إن لم تبادر للحد منها ومقارعتها فإنها ستأتي على الإيمان من الداخل وستؤدي بالتالي إلى خوائك داخلياً، وإذا ما استلب الإيمان منك وخلا باطنك وظل الإيمان ملاصقاً لظاهرك إذ ذاك ستدخل ضمن الذين يطلق عليهم اسم «المنافق».

فلو خلت قلوبنا أنا وأنتم من الإيمان وبقي ظاهرنا متلبساً بالإيمان، وقطعنا أواصر الإيمان وعلائقه، بيد أن ألسنتنا ظلت تلهج بالتعابير الإيمانية، فهذا هو النفاق وهو من الخطورة بمكان.

والقرآن الكريم يصرح ﴿ ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴿١٠﴾ ﴾[1]**، وذاك هو السوء المبين، ألا وهو التكذيب بآيات الله.**

ويقول في موضع آخر: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴿٧٧﴾ ﴾[2]**. وهذا هو مكمن الخطر الذي يتهدد**

(١) من سورة الروم.

(٢) من سورة التوبة.

المجتمع الإسلامي، وحيثما شاهدتم في التاريخ انحرافاً في المجتمع الإسلامي فإنه يمثل منطلق هذا الانحراف.

ربما يشنّ العدو الخارجي هجومه ويدمر ويخرب لكنه لا قدرة له على الإفناء، وذلك لبقاء الإيمان الذي قد ينهض وتخضر أغصانه من جديد، غير أن جيوش العدو الداخلي إن هجمت على الإنسان وأفرغت باطنه إذ ذاك سيطال الانحراف سبيله، وحينما وجد الانحراف فإن منشأه هو ذاك، ولقد تصدى النبي ﷺ لهذا العدو أيضاً.

علينا الاستلهام من سلوك النبي ﷺ

امتاز سلوك النبي ﷺ بالتدبير والسرعة في العمل فلم يدع الفرصة تفوته في أية قضية، كان ﷺ طاهراً قانعاً لا وجود لأية نقطة ضعف في وجوده المبارك، كان معصوماً نقياً، وهذا بحد ذاته يمثل أهم عوامل التأثير. فعلينا الاستلهام منه.

والجانب الأعظم من هذا الكلام إنما هو يمسني أنا بالذات حيث عليّ أن أتعلم منه، وعلى المسؤولين أن يتعلموا أيضاً، فالتأثير بالعمل أكثر شمولية وعمقاً من تأثير اللسان. كان ﷺ صارماً صريحاً، فلم يكن ذا وجهين في كلامه، وعندما كان يواجه العدو كان يستخدم

معه أسلوباً سياسياً يوقعه في الخطأ؛ فلقد كان يباغت العدو في الكثير من الحالات، سواء في المواقف العسكرية أو السياسية، لكنه كان صريحاً مع المؤمنين ومع قومه على الدوام، نقياً واضحاً في كلامه بعيداً عن الممارسات السياسية، يبدي المرونة في المواطن الضرورية كما في قضية عبد الله بن أبيّ ذات الأحداث المفصلة، لم ينكث عهداً مع قومه أو مع الفئات التي عاهدها وإن كانوا أعداءً له وبالذات كفار مكة، كانوا هم الذين نقضوا عهودهم فردّ عليهم النبي ﷺ رداً قاطعاً، لم ينقض ﷺ موثقاً أبرمه مع أحد قط، لذلك كان الجميع على ثقة بالعهد الذي يبرمه معهم.

ومن ناحية أخرى لم يهمل النبي ﷺ تضرعه إلى الله سبحانه وكان مواظباً على توطيد أواصر علاقته بالباري جل وعلا يوماً بعد يوم؛ فلقد كان يرفع يد الضراعة إلى بارئه في تلك الأثناء التي ينظم عساكره ويحثهم ويحضهم على القتال، وفي ساحة الوغى، عندما كان يمسك بسيفه ويقود جيشه بحزم، أو يعلمهم ما يصنعون؛ يجثو على ركبتيه رافعاً يديه باكياً مناجياً ربه سائلاً منه العون والإسناد ودفع الأعداء.

لم ينته به دعاؤه إلى الاستغناء عن قواه، ولا استثماره لقواته أغفله عن التوسل والتضرع والارتباط بالله سبحانه، بل كان حريصاً

على كلا الجانبين، لم يعتره التردد أو الخوف وهو يواجه عدواً عنوداً؛ ولقد قال أمير المؤمنين عليه السلام ـ وهو مظهر الشجاعة ـ «كلما اشتد الوطيس لذنا برسول الله»، وكان يلوذ به كل من شعر بالضعف.

استمر حكمه صلى الله عليه وآله عشراً من السنين لكننا لو أردنا إيكال العمل الذي أنجز خلالها إلى قطاع من أكثر العاملين تفانياً لعجزوا عن انجاز كل تلك الأعمال والخدمات على مدى مئة عام، ولو قارنا أعمالنا إلى ما قام به النبي صلى الله عليه وآله حينها سندرك المهمة التي اضطلع بها رسول الله صلى الله عليه وآله؛ فإدارة الحكم وبناء ذلك المجتمع وصياغة ذلك الأنموذج بحد ذاته يمثل واحدة من معاجزه صلى الله عليه وآله؛ فعلى مدى عشر من السنين عاشره الناس ليلاً ونهاراً، ترددوا على داره وتردد هو على دورهم، كانوا معه في المسجد وفي الطرقات وفي حلّه وترحاله وفي منامه، تحملوا الجوع معاً، تذوقوا طعم السرور معاً، فقد كان الوسط الذي يعيش فيه النبي صلى الله عليه وآله مفعماً بالمسرة وكان صلى الله عليه وآله يمازح الآخرين ويقيم السباقات ويشترك فيها، وعلى امتداد تلك السنوات العشر تعمقت محبة أولئك الذين عاشروه له وازداد إيمانهم به، وعندما فتح صلى الله عليه وآله مكة جاء أبو سفيان متخفياً برفقة العباس عم النبي صلى الله عليه وآله يطلب الأمان، ولما حل الفجر رأى النبي صلى الله عليه وآله يتوضأ وقد أحاط به

القوم ليحظى كل منهم بقطرات الماء التي تتناثر من وجهه ويديه! فقال أبو سفيان: لقد رأيت كسرى وقيصر ـ وهما من ملوك الدنيا المعروفين بجبروتهم وسطوتهم ـ لكنني لم أرَ عليهم مثل هذه العزة! أجل، فالعزة المعنوية هي العزة الحقيقية ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾[1]، فالعزة من نصيب المؤمنين أيضاً، إن هم سلكوا ذات الطريق.

في مثل هذه الأيام وبالذات في يوم الثامن والعشرين من صفر غاب هذا النور الإلهي، ورحل هذا الإنسان السامي وهذا الأب الرؤوف من بين أهل الأرض فخلف فيهم الغمّ والحزن. وكانت أيام مرضه ﷺ ورحلته أياماً صعبة بالنسبة لأهل المدينة، وبالذات في تلك الأحوال التي سبقت رحلته ﷺ بقليل، فقد توجه إلى المسجد وارتقى المنبر ثم نادى: ألا من له حق عليّ فليأت ويأخذ حقه، فضج الناس بالبكاء وقالوا له: يا رسول الله، أوَلنا حق عليك؟! فأجابهم: الفضيحة أمام الله أشد عليّ من الفضيحة أمامكم، فإن كان لكم حق أو دين عندي فهلموا خذوه لئلاّ يبقى إلى يوم القيامة.

---

(١) من سورة المنافقون.

انظروا أية أخلاق هذه! مَنْ هو الذي يتفوه بهـذه الكلمـات؟ إنـه ذلك الإنسان الرفيع الذي يفتخر جبرئيل بمحادثته، لكنـه فـي تلـك الأحوال لا يقول مزاحاً، بل كان جاداً لئلاّ يـضيع علـى يديـه حـق لأحد.. ثم كرر ﷺ القول مرتين وثلاثاً - وقد وردت تلك القـضية في كتب التاريخ ولكنني لا أستحضرها على وجه الدقـة - لكـن مـا تواتر نقله هو أن رجلاً قام وقال: يا رسول الله، لي عليك حق، فلقـد كنتُ غير مرة على مقربة منك فضربتَ ناقتك فوقعت الـضربة علـى بطني، وذاك ما أطلبه منك. فرفع النبي ﷺ ثوبه وقال له: هلـم خـذ حقك ولا تدعه إلى يوم القيامة. فأخذ الناس ينظرون وهـم حيـارى ويقولون: أحقاً يريد هذا الرجـل الاقتـصاص مـن الرسـول؟! وهـل ستسمح له نفسه؟! ثم إنهم رأوا النبي قد أرسل مَن يأتيه بتلك العصا ثم توجه للرجل وقال له: هاك العصا واضربني ضربة بضربة. فتقـدم الرجل، ودُهش الناس واستحوذت عليهم الحيرة والخجل لئلاّ يفعـل هذا الرجل فعلته.. وإذا بهم يشاهدونه يهوي على قـدمي النبـي ﷺ يقبلهما وهمّ بتقبيل بطـن النبـي ﷺ أيـضاً قـائلاً: أعـوذ بموضـع القصاص من بطن رسول الله من نيران يوم القيامة.

اللهم إنا نسألك بمحمد وآل محمد وبعزتك وبجلالـك أن تنـزل أفضل صلواتك وتحياتك وألطافك ورحماتك حتى قيام الساعة على الروح الطاهرة لنبينا ﷺ.

اللهم اجزه عن الإسلام والمسلمين وعن البشرية بأجمعها خير الجزاء، واجعلنا من أمته ومن السائرين على صراطه المستقيم، واجعل من مجتمعنا شبيهاً بمجتمعه، ومُنَّ علينا بهمّة إتّباعه.

(الخطبة الأولى من صلاة الجمعة بتاريخ ٢٤ صفر ١٤٢٢ هـ)

❀

الفهرس